المحاضرة (07) : وظائف اللغة في العمل الأدبي :

تمهيد :

يعد النص محور الأدب الذي مادته اللغة المنحرفة عن الاعتيادية و المألوفية مشكلة إنتاجا إبداعيا موجها إلى ذات متلقية تستعين بالسياق لفك شفراته من خلال فهم خصوصياته الأسلوبية ، وبذلك تتشكل حلقة تواصلية تجمع أركانها الستة ، حيث يتكفل كل عنصر منها بوظيفة لغوية معينة للعمل الأدبي ضمن ما أطّره رومان جاكوبسون في "نظرية التواصل" فمن يكون ؟ وما وظائف اللغة التي أسسها (وضعها) ؟

1- التعريف ب"رومان جاكوبسون" (Roman Jakobson 1896/1982):

ولد العالم اللغوي والناقد الأدبي الروسي بموسكو سنة 1896 م ، وزاول دراساته هناك بمعهد اللغات الشرقية ثم بالجامعة المركزية ، حيث تخصص في اللسانيات المقارنة والفيلولوجيا السلافية ، وأسس مع بعض الباحثين "نادي موسكو اللساني" الذي عقد أول جلسة له في مارس سنة 1915 م وكان من مهام هذا النادي البحث في مجالات الشعر والتنظيم ، وعلم الجمال ، والعروض وأسهم فيه "جاكبسون" بوضع بعض النظريات الأدبية الحديثة .

ثم غادر "جاكبسون" روسيا عام 1920 م ، بعدما نشب نزاع فكري بينه وبين بعض أعضاء المدرسة الشكلانية التي كان واحدا من أتباعها واستقر في تشيكوسلوفاكيا ليُدَرّس بجامعة برنو (Brno) طوال إقامته هناك ، وشاءت الصدفة أن يكون أيضا واحدا من المؤسسين لنادي براغ اللساني ، وناقش رسالة الدكتوراه بجامعة براغ سنة 1930 م ، وشغل نائب رئيس نادي براغ عام 1938 م .

وفي عام 1939 م ، أدى الغزو النازي لتشيكوسلوفاكيا بياكبسون إلى الهجرة إلى البلدان الأسكندنافية بسبب انتمائه العرقي إلى بني إسرائيل ، ودرس بجامعات كوبنهاغن وأوسلو و أوبسال ، ونتيجة للتهديدات النازية ضد هذه البلدان ، رحل إلى الولايات المتحدة سنة 1941 ، ودرس بالمدرسة الحرة للدراسات العليا التي أسست بنيويورك كمواطن للباحثين اللاجئين من أوروبا ما بين 1943 و 1946 م ، وهنا –كذلك- كان لجاكبسون فضل كبير في تأسيس نادي نيويورك اللساني ، واستمر في التدريس بجامعة كولومبيا بين 1943 و 1949 م ثم انتقل بعدها إلى جامعة هارفرد ، ودرس هناك اللغة والأدب السلافيين من سنة 1949 حتى سنة 1957 م ، وبعد هذه الفترة التحق بمعهد ماساتشوست التكنولوجي ، حيث قام بتدريس اللسانيات العامة واللسانيات السلافية ، توفي في كامبريدج 18 يوليو عام 1982 م .

2- **أهم مؤلفاته :** ألف جاكبسون ما يربو عن 370 كتابا ومقالة وما يربو عن مائة عمل شملت العديد من النصوص والمقدمات والأشعار المختلفة ، ويوجد عدد كبير من مؤلفاته في المجلدات التسعة الأولى من أعمال نادي براغ اللساني ، ومن أهم مؤلفاته :

- ملاحظات حول التطور الفونولوجي للروسية بالمقارنة مع اللغات السلافية الأخرى (أعمال نادي براغ اللساني ، II ، 1929 ، 118 صفحة).
- لغة الأطفال ، الحبسة ، والقوانين الفونولجية العامة ، (أوبسال 1941) ، (الترجمة الإنجليزية عام 1968 بلاهاي ، موطون ، 83 صفحة) .
- مقدمة في تحليل الكلام : أخرجه بالاشتراك مع "هال" (Halle) وفانت (Fant) عام 1952 ، (طبعة معهد ماساتشوست التكنولوجي ، 64 صفحة) .
- مبادئ اللغة ، ظهر عام 1956 بالاشتراك مع "هال" (لاهاي : موطون ، 87 صفحة) .
- محاولات في اللسانيات العامة (باريس : طبعة مينوي ، 1963) وهو آخر وأهم مصنف للمؤلف ، ويضم إحدى عشرة مقالة ألفت بعد 1950 م عند اقامته بأمريكا .
- **ومن مقالاته الشهيرة في الفونولوجيا :**
- مبادئ الفونولوجيا التاريخية محررة بالألمانية (أعمال نادي براغ اللساني ، IV ، 1931).
- حول نظرية الأصول الفونولوجية المشتركة بين اللغات (أعمال المؤتمر الدولي السابع للسانيات ، كوبنهاغن 1938) .
- التطور الفونولوجي في لغة الأطفال والتناسق المتطابق في جميع اللغات (المؤتمر الدولي السابع للسانيات ، بروكسل ، 1939) .

3- **نشاطاته العلمية :** إن نشاطات جاكبسون العلمية متنوعة للغاية ، وتعكس اهتمامات مدرسة براغ بوجه خاص ، وقد نقل هذه النشاطات والأفكار إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، موليا اهتماما كبيرا بمفهوم الوظيفة (Functionalism) ، وقد تأثر العديد من اللسانيين الأمريكيين بجاكبسون ، فأنشئوا جمعية خاصة ، أطلقوا عليها نادي نيويورك اللساني ، وذلك على غرار نادي براغ اللساني ، واتخذ بعضهم المقاربة الوظيفية مذهبا لهم ، ووجدوا فيها مجالا خصبا مثمرا للتنظير والتأليف ، أما جاكبسون فقد أبدع في عدة مجالات منها : الفونولوجيا ، والأنثروبولوجيا والأسلوبية ، وعلم النفس اللغوي ، وعلم الدلالة ، ونظرية الإعلام ، ونظرية الأدب ، وعروض الأشعار الروسية والتشيكية ، والتطور اللغوي عند الأطفال والمعاقين ، وكذلك الفلكلور .

وفي حقل اللسانيات ، اشتهر "جاكبسون" بنظريته الفونولوجية التي تنص على وجود نظام سيكولوجي كلي (Universal) منتظم وبسيط تشترك فيه جميع اللغات البشرية ، كما عني بالتحليل السمعي (acoustic analysis) بالدرجة الأولى مستعملا آلات خاصة لتحليل الأصوات على شكل موجات صوتية ، وتوصل بهذه الطريقة إلى اكتشاف مجموعة من العناصر الصوتية الكلية .

وقد كان "جاكبسون" رائدا في توضيح مبادئ الفونولوجيا التاريخية والمضي قدما في تطويرها .

4- نظرية وظائف اللغة : أهم كتاب طرح فيه جاكبسون رأيه في التواصل هو كتابه : بحوث في اللسانيات العامة ، وهو كتاب مكون من جزأين ، ويتحدث الجزء الأول عن أسس اللغة ، في حين يتناول الجزء الثاني العلاقات الداخلية والخارجية للغة ، وفي الفصل الرابع من كتابه هذا الخاص بـ" الشعرية واللسانيات" ، نجد نموذج جاكبسون التواصلي الشهير إلى درجة أن أي نموذج بعده ، وحتى خارج مجال الأدب ، لم يستطع إزاحته أو عدم الاستفادة منه .

إن كل فعل تواصلي لفظي ، أو كل سيرورة لسانية ، تتكون من مجموعة من الفواعل المنظمة للتواصل ، هي في مجموعها ستة فواعل :

أ/ المرسل : هو ذاك الذي يرسل الرسالة سواء أكانت سمعية أم بصرية أم غيرهما ، ويمكن أن يكون ذاتا أو آلة ، أو عنصرا طبيعيا ، إلخ .

ب/ المرسل إليه : هو ذاك الذي تلقى الرسالة ، ويقوم بعملية الاستسنان .

ج/ المرجع : هو ما نتحدث عنه من موضوعات العالم .

د/ السنن : هو نسق القواعد المشتركة بين الباث والمتلقي ، والذي بدونه لا يمكن للرسالة أن تفهم أو تؤول .

هـ/ القناة : هي التي تسمح بقيام التواصل بين المرسل والمرسل إليه ، وعبرها تصل الرسالة من نقطة معينة إلى نقطة أخرى .

و/ الرسالة : هي التي تحقق التواصل ، ويمكن أن تكون لسانية أو سيميائية .

ويقوم المرسل (أو المتكلم) بتوجيه رسالة إلى المرسل إليه (أو المخاطب) ، وتستند هذه الرسالة إلى سياق (أو مرجع) يفهمه المرسل والمرسل إليه فهما جيدا ، وتقوم على سنن (وهو ما يعبر عنه بغموض ، باللسان لدى سوسور) مشترك بين الطرفين جزئيا أو كليا ، وتقوم بالربط بينهما قناة تواصل تسمح بربط فيزيائي ونفسي للتواصل والإبقاء عليه أو قطعه ، وهو ما يعبر عنه بالشكل التالي :

مرسل	...رسالة ...	مرسل إليه
(بات)		(متلق)
(متكلم)	مرجع	(مخاطب)
(ناسخ)	(سياق)	(قارئ)
(مؤسنن)		(مستسنن)
إلخ	قناة	إلخ
	(اتصال)	
	سنن	
	(لسان)	

وهذه العناصر الستة المتضامنة في تبليغها يقابل كل عنصر منها وظيفة بعينها :

1- الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية ترتبط بالمتكلم .

2- الوظيفة التحريضية أو الاستجوابية أو الأمرية ترتبط بالمخاطب .

3- الوظيفة المرجعية أو الإعلامية ترتبط بالمرجع .

4- الوظيفة التوصيلية أو وظيفة إقامة الاتصال مرتبطة بالاتصال وهي تعبر عن وحدة شعور ، لذا قد تسمى عطفية .

5- وظيفة تعدي اللغة أو ما وراء اللغة ، وقد تدعى الوظيفية التحقيقية على أنها تحلل النظام أو السنن اللغوي المشترك بين المرسل والمرسل إليه ، ترتبط بالنظام أو السنن أو حتى المواضعة (أي استخدام اللغة للحديث عن اللغة نفسها .

6- وبالنسبة للمرسلة ، فإنها تتحد بالوظيفة الشعرية التي تشير إلى لذة النص ، ومتميزة من جراء أن التشديد يقع على المرسلة بالأصالة عن نفسها .

تبرز "الوظيفة الأدبية" حين يصبح القول اللغوي أدبا ، وهو تحول فني ينقل فيه القول من الاستعمال النفعي إلى الأثر الجمالي .

ولكن كيف يحدث هذا ؟ إنه يحدث من خلال حركة الرسالة الإرتدادية ؛ فالرسالة بوصفها قولا لغويا تتجه من باعثها إلى متلقيها منحرفة عن خطها المستقيم الأفقي وتثنيها إليها ، فكل نص أدبي هو حالة إنبثاق عما سبقه من نصوص تماثله في جنسه الأدبي .